ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

الهوية الاجتماعية التمثلات ومصادر التشكل

The sociology of identity is an evolution in thought and concept

كتيبة بغامي*[1] ،جامعة محمد خيضر بسكرة، katibabeghami@univ.batna.dz
مريم شريط[2] ، جامعة حمه لخضر –الوادي، **nouris-2007@yahoo.fr**

تاريخ الاستلام	2022-02-04	تاريخ القبول	2022-12-04

ملخّص

تختلف وجهات النظر والتصورات المتعلقة بالهوية، لكونها تتعدد من ناحية المرجعيات المحددة لها وكذا المقاربات الابستمولوجية المفسرة والمصادر والعناصر التي تكونها، فهي نقطة التقاء الكثير من التخصصات وتعد الهوية جملة من الخصائص التي تستقل بها الذات عن الآخر وفي نفس الوقت فهي تتعلق بالآخر من خلال الانتماء إلى جماعات معينة، بداية من الأسرة المدرسة المحيط، جماعات العمل لذلك تختلف التمثلات والتصورات حول تنويعاتها من تصور ذاتي /موضوعي/ فردية جماعية/ شخصية. وتهدف هذه الورقة البحثية من خلال المنهج الوصفي التحليلي إلى الكشف عن أهم المقاربات النظرية التي تفسر الهوية الاجتماعية وأهم المصادر التي تشكلها كون هذه المقاربات تعد كأدوات ومعارف ابستمولوجية يمكن للباحث السوسيولوجي تبنيها، ولعل أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الورقة أن هذه التمثلات والتصورات المتعددة للهوية الاجتماعية تتداخل لا يمكن الفصل بينها، وتبقى مرتبطة بالفرد والمجتمع وكذلك ترتبط بالسياقات والخصوصية الاجتماعية لها.

الكلمات المفتاحية: المقاربات الابستمولوجية؛ التمثلات؛ الهوية الاجتماعية؛ السياقات؛ الخصوصية الاجتماعية.

Abstract

Identity views and perceptions differ, as they are numerous in terms of their specific references as well as interpreted absolutist approaches, sources and elements that make up them. They are the meeting point of many disciplines and identity is a set of characteristics that are independent of oneself and at the same time relate to the other through belonging to certain groups, starting with the surrounding school family, working groups, so representations and perceptions of their variations differ from subjective/ objective/ individual collective/personal perceptions.This research paper aims through the analytical descriptive approach to reveal the most important theoretical approaches that explain social identity and the most important sources posed by the fact that these approaches are considered as tools and knowledge that the sociological researcher can adopt, and perhaps the most important findings of this paper that these multiple representations and perceptions of social identity overlap inseparable, remain linked to the individual and society as well as to contexts and social privacy.

Keywords:epistemological approaches; representations; social identity; contexts; social privacy.

---

*المؤلف المراسل

مقدّمة

لقد كان الامتثال في البدايات الأولى للمجتمع التقليدي خاضعا للجماعة، حيث كانت السيطرة للنحن على الأنا، وكان الفرد يمتثل لقانون الجماعة التقليدية، القبيلة، الدم، القرابة، لذلك كانت الجماعة الصيغة المرجعية للذوات، إذ يعد التضامن وقوة الروابط الاجتماعية من الخصائص التي تميز العلاقة بين الفرد والجماعة، فالأنا تخضع للنحن، إذ لا توجد هناك قيمة للفرد خارج الجماعة التي ينتمي إليها.

وكانت الأشكال الجماعية هي المصدر والمرجع الملهم لحياة الأفراد، بمعنى أن القيم والقواعد والمعايير الجماعية هي الشكل الذي كان يميز المجتمعات التقليدية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشكل الفردي وسيطرت الأنا الفردانية، حيث ساهمت العولمة والتقدم الإنساني في توسع الانتماءات الإنسانية، وهذه المراحل التي مر بها الإنسان تاريخيا ساهمت بشكل كبير في سيرورات نمو أشكال الهوية وتحولها بين الفردانية والجماعية، وبين الأنا و النحن، ومن ثم تعددت التصورات والتمثلات التي عالجت الهوية الاجتماعية، وكذلك العناصر والمكونات التي تشكلها.

وبالتالي تتمحور إشكالية الدراسة حول التصور أو التمثل الذي يطرحه علم الاجتماع للهوية الاجتماعية، هل هي جوهر ثابت أم أنها مجرد إحساس بالانتماء إلى جماعة؟ أم ثقافة معينة؟ هل هي نتاج الانتماء إلى ثقافة مجتمع ذي خصوصية تاريخية ودينية وثقافية وتتأثر بالمحيط الذي تنتمي له؟ أو هي بناء يبنى في علاقة تفاعل وتصور علائقي؟ ومن هنا تطرح الهوية إشكالات الفردي والجماعي والشخصي والعلائقي،أي أطروحة يتبناها الباحث السوسيولوجي كمعرفة ابستمولوجية و سوسيولوجية التي تظهر كتنوعات للهوية أم أن كل هذه التصورات تتداخل ولا يمكن الفصل بينها وتبقى مرتبطة بالفرد والمجتمع والسياقات التي تتواجد فيها والخصوصية الاجتماعية لها؟ و في هذا الصدد يرى بورديو " أننا لا نستطيع إدراك المنطق الأكثر عمقا للعالم الاجتماعي إلا إذا سبحنا في خصوصية واقع إمبريقي، محدد ومؤرخ تاريخيا وإلا إذا بنيناه بوصفه حالة خاصة للممكن فحسب تعبير باشلار أي باعتباره حالة وجه في كون نهائي من التشكلات و الصيغ الممكنة"(حيمر، ب.س.ن)

أولا: التصورات والتمثلات المتعددة للهوية الاجتماعية

تعددت التصورات حول الهوية الاجتماعية، فالتصورالموضوعاتي الذي يعرف الهوية كجوهر ثابت ومستقر يقاوم التطور وفق الأفراد والجماعة، والتصور الذاتاني الذي ينفي أي طابع موضوعي عن الهوية ويحيلها إلى مجرد إحساس بالإنتماء أو التماهي مع جماعة متخيلة، والتصور العلائقي الذي يحدد الهوية بكونها بناء يبنى في علاقة تقابل فيها مجموعة مجموعات أخرى تكون في تماس معها(اجبرون، 2005).

لذلك توجد مجموعة من التصـورات السـوسـيولوجية التي تمنح للهوية تنويعاتها ومدلولاتها وتوجد مجموعة من التمثلات والخلفيات، وبدورنا نتساءل: فأي وجهة النظر هي الأصوب لفهم خلفية الهوية؟

1-1-التصور الأول

يؤمن هذا التصور بمشروعية وجود هوية جماعية تستمد ملامح مقوماتها من ثقافة المجتمع، على اعتبار الثقافة المجموع المنسجم والمستمر للمعاني والرموز المكتسبة المشتركة التي تعمل الجماعة على توصيلها وإعادة إنتاجها، وعنصر التماثل الذي تقدمه للجسم الاجتماعي لتوحيد الطموحات والمثل (الواكدي، 2010).

من هذا المنظور فإن الجماعة تمثل الرمز الذي ينتمي له الفرد، و الهوية الجماعية هي الطريقة التي يعرف بها الأفراد أنفسهم وذلك بواسطة العلاقات التي ينتمي إليها، و هذه الأخيرة يتعرف عليه الآخرون باعتباره عضوا في هذه الجماعة ومنتميا إليها، كما أن العلاقة الاجتماعية تسمح بتحديد موقع ومركز الفرد و الذي يكتسبه عن طريق العلاقة والقوة الاجتماعية. ويتفق كل من بورديو وفوكو وماكس فيبر ونوربرت الياس "أن كل امرئ يكتسب القوة الاجتماعية التي تمكنه من التفاعل والتبادل والتأثير والاعتماد المتبادل مع غيره، متحركا بفضلها من مجرد ذات طبيعية – بيولوجية ذات سيكولوجية- إلى ذات اجتماعية ثقافية تاريخية فاعلة، أي إلى فاعل اجتماعي له قيمة ما، وموقع في الفضاء الاجتماعي(حيمر، ب.س.ن).

بمعنى أن العلاقة تسمح للفرد والذات من أن تتحول من ذات طبيعية ذات سمات بيولوجية لتكتسب الصفة الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي يكتسبها الفرد من خلال الموقع أو الدور أو القوة الاجتماعية التي تمنحها له العلاقة الاجتماعية مع الآخر، أو مع الجماعة التي ينتمي إليها التي تمثل الهوية الجماعية و"تترتب عنها سلطة لا متناهية، هي التي تزود الأفراد بعناصر هويتهم، وهي نتاج نظام رمزي تأتي الجماعة لتحتل موقعها فيه، فهي التعبير الأساسي عن وجود الجماعة كجماعة موحدة والشرط الرئيسي لتحقيق استمراريتها وتميزها وتاريخيتها أي لإعطائها ذاتية مستقلة (الواكدي، 2010).

و بهذا تصبح الجماعة المرجعية التاريخية والثقافية للأفراد كونها تمثل صفة الرمز والتاريخ الخاص بالأفراد، كالعادات الخاصة بالجماعة وتقاليدها والمعتقدات والآراء و الممارسات الأخلاقية ، فالهوية الجماعية هي ذلك الشكل أو الصورة التي تكونها جماعة معينة عن نفسها، كما أن الأفراد الذين ينتمون لها يتماثلون و يتطابقون معها، إذن فالهوية الجماعية " يمكن اعتبارها عبارة عن تماثل اندماج وتطابق يتم من قبل الأفراد المشاركين، فهي ليست موجودة بذاتها ولذاتها، ولكن بقدر الانتماءات التي يشكلها الأفراد ويرسمونها، وتكون هذه الهوية قوية أو ضعيفة بنفس قدر القوة والضعف الكامن في وعي الأفراد وشعور الجماعة، وهي التي تحرك تفكيرهم وتصرفهم "(أسمن، 2003)

توضح هذه الرؤية أن قوة وضعف هوية الجماعة مرتبطة بمدى قوتها أو ضعفها في وعي الأفراد، الأمر الذي يفضي إلى توجيه سلوكاتهم وتصرفاهم، كما يمكن اعتبار الهوية الجماعية -كما يعتبر العديد من الباحثين في الموضوع- في إطار "ما يسمى الخيال الاجتماعي، وعليه دمج الإنسان في آفاق وتشكيلات وتكوينات اجتماعية يطلق عليها الانعكاس المزدوج، ويقصد بعملية الانعكاس

المزدوج بناء وتثبيت الهوية الشخصية عن طريق الاندماج والتطابق مع المدلولات المعنوية عند الآخرين. "(أسمن، 2003).

و الملاحظ أن هذا التصور يركز على الهوية الجماعية، في حين أن الهوية الجماعية هي تنشأ من قبل الأفراد من الداخل إلى الخارج، كما أنها أساسا مسألة معرفة ووعي يحمله الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الجماعة ويتماثلون تحت غطاء هذه الهوية الاجتماعية، وفي واقع الأمر فهي تنبع من الأفراد لذلك فإن هذا التصور أغفل الجانب الذاتي أو النفسي الذي يعدّ بعدا من أبعاد الهوية، كما أنه يجعل الهوية تماثلا ثابتا بين كينونة اجتماعية وتاريخها.

2-1/التصور الثاني

يقوم هذا التصور على المشاركة العاطفية والوجدانية للأفراد و ينتج عن الاحتكاك مع مجموعات أخرى، وهذا الاتصال يسمح بتنمية الشعور بالانتماء لدى الفرد ويفرز عملية التماهي، هذه المشاركة الوجدانية التي يتوقف عليها وجود الهوية عند اريكسون والاستمرارية عبر الزمن، بناء على ذكريات وتجربة تاريخية مشتركة(الواكدي، 2010).

فالانتماء إلى جماعات اجتماعية والاستمرارية معها، يولد الشعور بالانتماء و يترك في ذاكرتهم التجارب المشتركة التي تنمي شعورهم ووجدانهم اتجاهها، ويتم ذلك نتيجة الذاكرة الجماعية أوما سمّاه بورديو الهابتوس " فهو يشتغل بوصفه تجسيدا ماديا للذاكرة الجماعية، معيدا في الخلف ما اكتسبه السلف و يسمح للجماعة بالاستمرار في كينونتها"(كوش، 2002)فالهوية الفردية نسق من الأحاسيس المتعلقة بتمثلات الذات، أي مجموع الخصائص التي يمكن للفرد أن يحدد من خلالها نفسه للآخر، أو يقدمها له ويتعرف عليها ويجعل الآخرين يعرفونه ويعترفون به.

لذلك فإن شعور الفرد بقيمته هي حاجته للاعتراف والتقدير، " فالهوية في هذا المنظور النفسي تعد كحقل للصراعات التاريخية وكمجال للصراع الاجتماعي، فتستعمل كوسيلة دفاعية لمواجهة غزو خارجي، أو أداة هجومية لاحتواء خصوصية جماعية، ومن هنا تتداخل حدود الهوية والسلطة والإيدولوجيا و المخيال الجماعي بتغذية الشعور بالهوية لتبرز بذلك كوسيلة لتأمين توازنات حقيقية أو وهمية"(كوش، 2002).

3-1/التصور الثالث

يقوم هذا التصور أو الرؤية على أن الهوية تتغير عن طريق التجارب الجديدة طيلة وجودها التاريخي، وبالتالي قدرتها على التغير، وهي بهذا المعنى ذات طبيعة جدلية يضم تناقضات واختلافات تتحرك داخل عملية صيرورة(الواكدي، 2010).

و يعني أن الهوية تكتسب وسائل جديدة نتيجة الاحتياجات الخاصة بها مع تغير الظروف التاريخية، ومن هنا فإن هذا التصور يركز على العلاقة مع الآخر، وهي تتطور حسب الحالة التي توجد بها مع الآخر و في إطار السياق الذي تتواجد فيه إذ يعتبر" السياق العلائقي وحده القادر على تفسير السبب في ترسيخ هوية معينة، فإذا كانت الهوية فعلا اجتماعيا وناشئة عن التصور وليست معطى، فهي ليست وهما يتعلق بمجرد ذاتية الفاعلين الاجتماعيين، كما أن تكوين الهوية يتم داخل الأطر

الاجتماعية التي تحدد موقع الفاعلين وتوجه تصوراتهم وخياراتهم، ومن جانب آخر فإن تكوين الهوية ليس وهما؛ لأنها تتمتع بفاعلية اجتماعية ولها آثار حقيقية" (كوش، 2002).

يطرح هذا التصور بناء الهوية وتكوينها في ظل الظروف والسياقات التي تتواجد فيها، وهي تتحرك في عملية سيرورة وصيرورة أي الوضع الجديد الذي يمكن أن تصبح عليه، فهذا التصور يتبنى طرح التغير إذا كان الأفراد يتكيفون معه أو يقبلونه، بمعنى أنهم يقومون ببناء هوياتهم بالاستمرارية والتكيف،الأمر الذي يفضي إلى تعايشها مع الظروف أو ما يسمى الاندماج والتعايش الثقافي، فالهوية لا توجد لذاتها وإنما في تفاعل وسياق علائقي" فالهوية والغيرية شريكان تربط بينهما علاقة جدلية والتماثل يوازي الاختلاف طالما أن الهوية هي محصلة مطابقة في كنف حالة علائقية، وهي نسبيةلأنها تتطور بتطور الحالة العلائقية."(كوش، 2002)

4-1/التصور الرابع

يذهب هذا التصور إلى رفض فكرة الهوية في ذاتها ويضعها في تعارض أساسي مع أفكار الحداثة، باعتبارها إيديولوجيا مغلقة وتعلقا بالتقاليد، مرادفة للولاءات العشائرية القبائلية والطائفية تنزع للمحافظة وتلغي الآخر وترفض الاختلاف والتنوع.(الواكدي، 2010)

ومن هنا فإن هذا التصور يلغي فكرة التفاعل مع الآخر، مبررا ذلك بأن الآخر قد يلغي الهوية الجماعية فتنصهر فيه وتنحل، نتيجة الهيمنة أو السلطة التي قد تمارسها هذه المجتمعات على صورة الهوية، ومن هذه الزاوية فإن هذه الرؤية تتناول الهوية بعيدا عن فكرة التثاقف و رفض الآخر، ويرى في هذا الصدد Gallisot "أنه لا وجود لتشكيلة جماعية ميتا تاريخية أو ميتافيزيقية، إذ يقول إن الفعل التاريخي فعل جماعي ولكن من دون أن يعني ذلك أنه يقوم على جسم أو شخصية جماعية، في التاريخ هناك فاعلون اجتماعيون، أي داع للحديث عن ذات تاريخية"(الواكدي، 2010)

5-1/ التصور الأخير

وهي الأطروحة الغربية التي رسم إدغار موران معالمها الكبرى في أعماله لاسيما في كتابه مدخل إلى الفكر المركب الذي حاول فيه وضع اليد على تعقيد الواقع من خلال تجاوز التناقض بين الوحدة والاختلاف(الواكدي، 2010)إذ أصبحت النظريات ما بعد البنيوية تنظر للهوية نظرة مختلفة، إذ أصبحت هويات الشعوب لها مظاهر مختلفة ومتعددة، وأصبح الأفراد ينشطون في خلق هوياتهم ولم تعد الهويات مختزلة إلى المجموعات الاجتماعية التي ينتسب وينتمي لها الأفراد، إذ أصبح لديهم عديد الاختيارات بشأن المجموعات التي يريدون الارتباط بها خاصة في ظل العولمة والوسائط الرقمية، كما يرى هذا التصور" أن الهوية سواء أكانت فردية أم جماعية، إنما تدرك في ظل ما هو متماثل ومختلف في نفس الوقت متميز ومتشابه في إطار هذه الثنائية تتأسس الهوية، ومن الضروري عدم تجاوز هذه الثنائية وإلا سيحدث اغتراب في الذات أو اندماج في الآخر وكلاهما استلاب وفقدان للهوية "(الواكدي، 2010).

فالهوية علاقة بين الذات والغير، فلا يمكن أن تكون ذاتية صرفة أو جماعية، فهي العلاقة التي تربط بين الأنا والآخر، والعلاقة التي تربط بين الهوية الفردية والجماعية" هو كون الأنا تتكون في

الإنسان الفرد بفعل اشتراك هذا الفرد في صورة نماذج التفاعل والاتصال مع المجموعة التي ينتمي إليها، وأيضا بفعل مشاركته في الصورة الذاتية التي يرسمها للمجموعة نفسها"(أسمن، 2003).

إن الأفراد بمشاركتهم المجموعات التي ينتمون إليها عن طريق التفاعلات والعلاقات والاتصال، يقومون بتكوين ذواتهم، وأيضا ينتمون إلى هذه الجماعات نتيجة الصورة التي يتمثلونها عنها أو يتصورون أنها المجموعة التي يجب الانتماء إليها، لذلك فالهوية الفردية " تشير إلى تلك الصورة المتكونة والمحفوظة على طول الخط في ذهن الإنسان الفرد والخالص بالملامح الفردية، التي تميزه عن كل ماعداه من صفات ومدلولات تختص بالآخرين، فهي وعي بالذاتية والكيان الخاص غير القابل للاختزال والانتقاص"(أسمن، 2003)

أي أن الهوية الفردية هي تلك الصورة الذهنية التي يرسمها الفرد عن ملامحه وصفاته، التي تميزه عن الغير أو الآخر، وهي إدراك الفرد ووعيه بكينونته ووجوده غير القابل لأي اختزال، وهي تختلف عن الهوية الشخصية، كون الهوية الشخصية "تمثل جوهر ومجموع كل الأدوار والصفات والقدرات التي تنشأ عند الفرد عن طريق انخراطه في تراكيب خاصة بالبنية الاجتماعية ككل، فالاختلاف بين الهوية الفردية والشخصية هوأن الهوية الفردية ترتبط بمجمل وكم حياة ما، بكل ما فيها من بيانات أساسية من الميلاد حتى الممات ترتبط بجسديته ووجوده وحاجاته الأساسية، أما الهوية الشخصية فترتبط بالاعتراف الاجتماعي بالفرد وقدرته على أن يوضع موضع المحاسبة من قبل الآخرين "(أسمن، 2003)

بمعنى أن الهوية الفردية تبقى متعلقة بحياة الإنسان من حياته لوفاته، بينما الشخصية هي التي تنال الاعتراف من الآخر والقدرة التي يمتلكها في علاقته مع الآخر، إن الأنا والهوية الفردية كليهما يعبران عن حالة ووضعية اجتماعية تتشكل وتتحدد اجتماعيا من خلال التفاعل الاجتماعي، يرى جينكز أن الهوية "تحتوى على عناصر من الفردية المتميزة وعلى عناصر يشترك بها الأفراد اجتماعيا"(أسمن، 2003)بمعنى أن الهوية جماعية من خلال العناصر المشتركة والمتشابهة والانتماءات الجماعية، وفردية كونها تمثل الخصوصية والاختلافات الفردية من حيث الجينات والصفات الفيزيائية والعناصر المادية والثقافية والبيئة الاجتماعية.

إن الهوية الجماعية والفردية تبقى مسألة وعي وإدراك تتحدد بطرق مختلفة، من خلال اللغة والتصورات والقيم والعادات والتقاليد والسياقات والخصوصيات السوسيوثقافية والتاريخية، كما أن كلا منهما تعد عملية تكوين اجتماعي " فالهوية الجماعية لا ترتبط كما هي الحال بالهوية الفردية بوجود محسوس لإنسان حي أو جسد حي يحمل هذه الهوية، فالقاعدة أو بالأحرى الحامل للهوية الجماعية هي دائما شيء رمزي غير محسوس، ووجود هذه الهوية ينحصر كلية في مركب رمزي ما يطلق عليه الجسد الاجتماعي ليس واقعا أو حقيقة يمكن حسمهما، ولكنه ما هو إلا استعارة أو مركب متخيل، ما هو إلا تركيب اجتماعي ولكن بصفته هذه يعتبر في الوقت نفسه جزءا من الواقع بلا أدنى شك."(أسمن، 2003)

في خضم ما تم طرحه فإن هذه التصورات تبقى متعلقة بالهوية، لا يمكن بأي حال من الأحوال اختزال أي تصور أو خلفية منها وتبقى مجرد تصورات تتعلق بوضعيات وسياقات مختلفة ومتعددة،

ومن جهة أخرى فإن مسألة الهويات الفردية والجماعية تبقى جدلية كعلاقة الجزء بالكل؛ فلا يمكن للجزء أن يؤدي دوره إلا في ظل هذا الكل، كما أن الكل لا يتكون إلا من خلال اجتماع الجزء، فالهوية ليست ذاتية صرفة فهي تنشأ بفعل التفاعل مع الآخر، وفي ظل السياق والمحيط الذي تنشأ فيه إذ يرى اريكسون " أنه عند دراسة نمو الأنا يجب الأخذ بعين الاعتبار الثقافة المجتمعية فالمعطى البيولوجي، والتنظيم الشخصي للخبرة، والمحيط الثقافي الاجتماعي كلها متغيرات مهمة تتعاون لتعطي معنى وتشكلا واستمرارية للوجود المتفرد للشخص، بمعنى آخر لا يمكن فهم النمو إلا عبر التفاعل بين الحاجات البيولوجية، وتنظيم الأنا والسياق الاجتماعي" (الجزار، 2011)

ويرى هول أن التفاعلية الرمزية توصلت إلى إعطاء فكرة عن الهوية الفردية، " فهوية الفرد تتشكل فقط من تفاعل الفرد مع الآخرين، ونظرة الفرد للآخرين تتشكل جزئيا من طريقة نظر الآخرين لذلك الفرد، ولكنها ليست فردية متميزة كليا عن المجتمع، فالهوية تعمل بين الفرد الاجتماعي والفرد الخالص"(هارلمبس وهولبورن، 2015).

إن الهوية نتاج المحيط الاجتماعي فهي تتأثر بالبناء والمجتمع من جهة، ومن جهة أخرى فهي تحدث نتيجة التفاعل الذي يحدث بين الفرد والآخر، فتتشكل هويته من نظرة الآخر له وفي الوقت نفسه فنظرة الفرد للآخر تتشكل جزئيا من الصورة التي يعطيها الآخر لهذا الفرد.

لذلك فالهوية نتاج بعدين أساسين هما: البعد الخاص بالبنية الاجتماعية والاستمرارية في الزمن حسب اريكسون، والثاني الخاص بالبعد العلائقي – المكاني- فهي حسب الاتجاه التفاعلي تنشأ بفعل القيم والاتجاهات التي تنتجها علاقات الفاعلين داخل نسق الفعل في ظل الدينامكية الاجتماعية التي يفرزها النسق ويعد هذا الاتجاه امتدادا لاتجاه الفهم لدى ماكس فيبر كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أن " الفرد ولو كان متنقلا مرتحلا فهو يلتصق بالمكان الجغرافي، فالمكانية تشكله والفضاء المعاش أمكنة وممارسات وتخيلات، كما أن كل هذه الأبعاد المعاشة تكوّن الذات ولكن أيضا العلاقات الاجتماعية والمكانية للكائن البشري"(محمد، 2017)، ويعني أن الفرد داخل الفضاء أو المكان الذي يتواجد فيه يتأثر بهذا السياق الخاص وكذلك بالتفاعلات الاجتماعية.

لذلك تبقى الخلفيات السابقة كل حسب تصورها، وضرورة الأخذ بخلفية أو أخرى تقتضى الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذا السياقات والتغيرات الزمنية والمكانية والوضعيات والعناصر المادية والرمزية المكونة لهذه الهوية في ظل الممارسات اليومية التي تتواجد فيها .

ثانيا: مصادر تشكل الهوية الاجتماعية ديناميات التفكك والبناء

أهم العناصر التي تساهم في بناء أو تفكيك الهوية :

1/التاريخ

يمثل التاريخ حالة زمنية ووضعيات عاشها الإنسان في الماضي، وتجارب حياتية شكلت حياة الأفراد فهو تراكم زمني للظواهر التي حدثت في المجتمعات، ويعد التاريخ من العناصر المشكلة للهوية؛ كونه يسجل الأحداث الفردية والجماعية التي تعرض لها الإنسان في فترات زمنية والتي

تشكل تجارب ومسارات حياتية التي يمكن رصدها كتنشئة اجتماعية تساهم في بناء مسارات وهويات الأفراد والجماعات، ويعد التاريخ عاملا مهما في بلورة وتغذية تجارب الإنسان و تشكيل ذاكرته وإدراكه لوعيه وتمثلاته حول نفسه، لتصبح فيما بعد تصورات ذهنية يعيدها عن طريق الذاكرة الجماعية و المخيال " فالمخيال يتشكل تاريخيا في الذاكرة الجماعية أو في الذهن، ويمكن استغلاله سياسيا وإيديولوجيا في اللحظات التاريخية العصيبة، فهو يضرب بجذوره في أعماق اللاوعي عبر تشكله خلال مختلف المراحل التاريخية"(الغني، 2017) .

إن التاريخ له دور كبير في نقل التراث والموروثات الحضارية للشعوب، وذلك بنقله أهم الأحداث والثقافات والقصص والروايات التاريخية والأساطير والديانات التي ترسخ الذاكرة الجماعية وتنقل عبر المخيلة لبناء الذاكرة الجماعية، لتعيد إنتاج سلوكات وترسخ أعراف وتقاليد تساهم في بناء الهوية كما "يشكل التاريخ منطلقا لتحديد هوية الجماعة، وقد يتجلى ذلك في تاريخ الجماعة التي قد تبرز في شكل مكتوب أو في شكل أساطير، وتقاليد، وعادات الجماعة وحكاياتها، وينطوي التاريخ أيضا على جل الأحداث الفردية والجماعية وعلى صورة أبطالها التارخيين، كما أنه يشمل الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والنشاطات الراهنة والبنية الاجتماعية، والاتجاهات والمعايير السلوكية وموروثات الماضي"(مكشليلي، 1993)

لذلك فالتاريخ يحدد هوية المجتمع نظرا لما يحمله من عادات وتقاليد وأساطير وقصص وأبطال سياسة، فالماضي يمثل تاريخ الجماعة ويستحضر عن طريق الذهنية أو الذاكرة والمخيلة الجماعية * فهو يمثل الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها الإنسان في الماضي وانتقلت عبر الأساطير والذاكرة لتعيد إنتاج بعض السلوكات نتيجة الرموز، إذ يرى ليفي ستروس أن الأساطير" هي نتاج منظم لخيال جمعي وتعبير عن لاشعور جمعي، وهي تعطي الدلالة والمعنى للحياة المادية والنفسية الخاصة بالجماعة، فالبنى المشتركة الموجودة تحت غطاء الأساطير تتوافق مع النسيج الداخلي للذهنية الجمعية"(مكشليلي، 1993)

ولهذا فالأساطير تعدّ من الرموز التي تعطي الدلالة والمعنى للحياة الخاصة بالجماعة، فهي تصور عن الحياة الممارسة من الأشخاص وما يتعلق بهم من قيم وعادات وشعائر، كما يرى مالينوفسكي أن "الأسطورة تؤدي وظيفة إيجابية في مختلف المجتمعات، فهي تعبر عن العقائد وترفع من شأنها وتحافظ على المبادىء الأخلاقية وتعززها، وتضمن فعالية المراسيم الطقوسية وتزود الناس بالمبادئ العلمية في حياتهم. فالأسطورة تعمل على تعزيز التلاحم في الجماعة من خلال التأكيد على العناصر

* الذهنية والذاكرة الجماعية يقصد بها مختلف التصورات والاتجاهات التي تشكلت عبر تراكمات زمنية ماضية، تمثل تاريخ جماعة، وبالتالي فإن هذه الجماعة تستحضر الماضي عبر عملية تمثلات مستمرة لتاريخها، عن طريق الرموز والسلوكات والتصورات والاتجاهات، والتجارب المختلفة التي مرت بها وتحمل في ذاكرتها الجمعية الرموز الخاصة بعاداتها وتقاليدها وكل المعتقدات والأساطير التي تترسخ في الذاكرة والمخيلة الجماعية، والتي تساهم في بناء الهوية الثقافية للجماعة، كما أن التاريخ حامل ثقافي ويسهم عن طريق الأساطير والروايات والأعمال الفنية والطقوس في خلق هوية الجماعة وبنائها كما هي الحال في الأنماط التربوية الخاصة بالأجيال اللاحقة.

الثقافية الأساسية في الهوية، وبالتالي فإن هذه الأساطير تتيح للجماعة أن تؤكد تماسك هويتها وأن تدفع أعضاءها للمشاركة في بناء الذهنية اللاشعورية"(مكشليلي، 1993).

إذن فالأسطورة تشكل الهوية من خلال وظيفتها الإيجابية، فهي رمز العقائد، وتعزز الأخلاق والتلاحم؛ لذلك فهي من العناصر الرمزية التي تربط الجماعات، وتقوى من تماسكها وتبني هويتها، لذلك فإن التراكمات التاريخية تثبت أهمية التاريخ في بناء هوية المجتمات، وتتم عملية تأسيس التصورات عن التاريخ بواسطة الذاكرة الجمعية. ويرى سبيربر أن " الذاكرة الجمعية ليست بعد كل شيء، سوى انتقال ذكريات شخص واحد أو بعض الأشخاص، متكررة في عدة مناسبات، إلى عدد كبير من الأفراد"(كاندو، 2009) فهي عملية التنقل لبعض الأحداث من الماضي للحاضر، في شكل استرجاع الذكريات أو الاحتفال ببعض الشخصيات التاريخية التي تمثل رمزا لجماعة معينة في فترة زمنية، وهذه السيرورة والاحتفاء بالمجد التاريخي الإيجابي ونقل الموروث يشكل مصدرا في بناء الهوية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات.

إن التاريخ تعبير عن الأحداث التي مست المجتمع، كما يمثل "ذاكرة جماعية بمعرفة وعي الجماعة بجذورها وبتجارب ومنجزات أسلافها، وبالتالي باستمراريتها عبر التاريخ وبمكانتها وخصوصيتها بين الأمم "(بن تمسك وآخرون، 2016) فهو يشكل الخصوصية لكل مجتمع معين في ثقافته وعاداته وتقاليده وأساطيره، وهويتة. ويرى ديوب " بأن العامل التاريخي هو الإسمنت الذي يضطلع بتوحيد العناصر المتنافرة داخل الشعب فيجعل منه كيانا واحدا، وذلك بفضل شعور الجماعات كلها باستمراريتها التاريخية"(كاندو، 2009)

إذن فالتاريخ يمثل مصدرا هاما في تشكل هوية المجتمعات، كونه يحافظ على سيرورة الموروثات والأحداث المهمة في تاريخ الشعوب ونقل الرموز والذكريات والثقافات الخاصة له، فهو يمثل ماضي المجتمع وذاكرته الجمعية وتجاربه الماضية، إذ يقول غيدنز" يصنع الأشخاص تاريخهم ولكنهم لا يصنعونه كما يشاءون أو في ظل ظروف من اختيارهم، بل يصنعونه في ظل ظروف محددة سلفا وموروثة في الماضي"(قيذنز، ب.س.ن) وبالتالي فالتاريخ يشكل تاريخ الحاضر الموروث من الماضي، وحسب قيذنز فالتاريخ الموروث هو من يتحكم في صنع التاريخ الخاص بالأفراد؛ لأن الظروف السبقية لفترة زمنية هي من تحدد صناعة التاريخ الحالي لهم.

2-2/الديــن

يشكل الدين الجانب العقائدي والروحي والمادي لأي مجتمع، "وهو كيان مجسد اجتماعيا، ومبلور بالممارسة في أنماط وتقاليد وأفعال، أي من حيث صيرورته نظاما من الممارسات والمؤسسات فضلا عن كونه نظاما من التصورات، بغض النظر عن طريقة استيعابه وطرق التعبير عنه من طرف المؤمنين به".(الغني، 2017)

لذلك يشكل الدين أحد العناصر المشكلة للهوية الثقافية لأي مجتمع، فهي متعددة بتعدد المقومات التي تقوم عليها: الدين والعرق واللغة والتاريخ، وتختلف مكونات هويات المجتمع من زمن لآخر، حيث إن الدين في المجتمعات التقليدية كان يشكل جزءا أساسيا لتشكل هوية المجتمع، إذ يرى

هول "أن المجتمعات ما قبل الحديثة كانت منحصرة في الموقع الذي يولد فيه الفرد-انعكاس رغبة الإله- فالأفراد لم ينظر إليهم بالخصائص التي يتميزون بها، بل باعتبارهم في سلسلة الوجود ونظام الأشياء وهناك نظام تراتيبي يمتد من أعلى القمة (الرب) مرورا بالملوك ثم الإنسان والحيوان والأشياء، وهوية الفرد جاءت من موقعه في سلم الأشياء بدل الخصائص الفردية" (هارلمبس وهولبورن، 2015) إن التصور في المجتمعات التقليدية للفرد كانت حسب تصنيفه في سلسلة الوجود، بمعنى حسب ترتيبه في نظام الأشياء وبالتالي ماهيته تأتي حسب مرتبته وليس حسب خصائصه وسماته الشخصية، ولهذا كان للدين دور هام في تشكيل الرباط الاجتماعي للجماعات، ويوضح الفرنسي فوستيل دي كولانج" أثر الدين في نشوء اليونان والرومان. وفي العالم المسيحي كانت سلطة البابا الروحية والسياسية تمتد على كامل أروبا كما أقام الإسلام إمبراطورية واسعة ضمت شعوبا كان الدين رابطها الوحيد"(بن تمسك وآخرون، 2016)

إن الدين كان يمثل رابطا وسلطة في الشعوب القديمة ولازال كذلك في بعض المجتمعات الحديثة، ويمثل دورا هاما في السلطة – مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الأمريكية- وكذا الحال في بعض المجتمعات العربية الذي يشكل فيها الدين مرجعا للهوية والثقافة و مبدأ سياسيا في تنظيم الدول كالسعودية، كما يعد عاملا في تشكيل العلاقات. يرى غابريال لوبرا "أن دور الجمعيات الدينية في الحياة السياسية كان دائما هاجس الدول. فهي تضمن طاعة الرعية أو تزرع فيها روح التمرد، تناصر أو تعادي الأحزاب، وهي ذات تأثير في العلاقات الدولية"(بن تمسك وآخرون، 2016)فالعامل الديني يمثل رابطا قويا في تفكيك وبناء المجتمعات ، فهو الرابط السياسي الخلفي لقيام بعض الدول، و صراع الحضارات لصموئيل هنتنغون ما هو إلا تعبير عن الطابع الديني، ويمثل الدين الخلفية الحقيقية لبعض المجتمعات في خلق ثقافتهم وبناء هويتهم ما هي إلا انعكاس للقيم الدينية والتربية على الشعور بها والامتثال لرمزيته، كونه له القوة في خلق الدمج الاجتماعي وآلية من آليات الضبط الاجتماعي، إذ يرى دوركايم" أن إحدى الخصائص الأساسية للدين هي بعده الجمعي الذي يكون أثره المساهمة القوية في تعزيز العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. كما أن الاهتمامات الدينية ما هي إلا صورة رمزية للاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية"(ريتور، 2015) .

فحسب دوركايم فإن الدين يعزز العلاقات الاجتماعية والأخلاقية، فهو يمثل رمز الجماعات ويعد من أهم العناصر الجمعية كما يمكن للدين أن يكون "ثقافة كاملة بصفته يعبر عن الرؤية للعالم، والطبيعة للوجود والإنسان فهو ترويض للوعي الفردي والجمعي، عبر مبادئ وقواعد للفكر و السلوك، فقد يقوى البعد الديني بالممارسة عن طريق رجال الدين الناطقين باسم الجماعة، أو يتعزز البعد الثقافي على الديني حتى إذا ما تعولمت المجتمعات فإنها تحمل على الدوام الأثر الثقافي للدين المؤسس"(الغني، 2017) فهو ذلك البناء المركب الذي يروض الوعي الفردي والجمعي، حيث يعد المقدس لدى الأفراد و يجمع بين عناصر متعددة منها المادية والروحية والأخلاقية والثقافية وهو يمثل الرمز والقيم التي يتمثلها الأفراد في الواقع الاجتماعي.

إن الدين يتحدد بالحصيلة السوسيولوجية باعتباره جمعيا واجتماعيا، فهو ينشأ في النظام الثقافي للجماعة ويضفي عليها خصائصه، ويصبح من أهم العوامل البانية للهوية الثقافية للجماعة،

وهذه العلاقة بينه بين الظاهرة الثقافية من منظور سوسيو معرفي تقوم أيضا على اعتبار ما يمثله من قوة دينامية في حياة الجماعة يظهر من خلال الفعل الاجتماعي والمعنى والرموز التي تضفيها الجماعة على الحياة والمعاش فضلا عن الممارسات والعلاقات(الغني، 2017) هذا التصور يوضح أهمية الدين في حياة المجتمع إذ يعد من العناصر البانية للهوية الثقافية الجماعية، باعتباره يشكل عاملا ديناميكيا في الجماعة يتجلى في الفعل الاجتماعي والمعاني وكذا الرموز التي تربط الجماعة في ظل حياتها اليومية وواقعها المعيش في ممارساتها وعلاقتها ويظهر ذلك في الاحتفالات والرموز الدينية، التي تنتقل عبر الأجيال في شكل عادات وعقائد دينية تدفع بالأفراد إلى التماثل بها، كما يساعدهم في الانتماء إلى جماعات دينية معينة الأمر الذي يفضي إلى شعورهم بالاستقرار والتلاحم؛ لذلك نجد أغلب الهويات الجماعية يكون فيها للدين أهمية بالغة" فالانتماء إلى الدين هو الذي يظل أساسيا ،ومن الواضح أن المنازعات القائمة على الهويات والمرتبطة بالأمكنة والأشياء والأفكار هي واقع حقيقي كما هو الحال في الهند المعاصرة، لذلك فإن الهويات المرتبطة بالديانات أو بالطبقات هي في الأساس بناءات مشيدة"(وانغ بين وآخرون، 2005) .

لذلك فالشعور بالانتماء إلى ديانات و إلى جماعات معينة يعد قوة هامة لتثبيت الهوية والشعور بالانتماء لجماعات دينية دون أخرى، فهو يشكل رمز الجماعة وكيانها، إذ يرى دوركايم أن وظيفة الدين هي تعزيز وحدة المجتمع وعصبيته وإعطاء الشرعية لقيمه ومعاييره وإضفاء القداسة عليها وتجميع الأفراد في هوية واحدة من خلال ممارسة الشعائر والطقوس الدينية"(الغني، 2017).

وعليه يعد الدين من العناصر المعززة والمقوية للانتماء، ويجعل الأفراد يمتثلون إلى القيم والمعايير عن طريق الطقوس والشعائر، وهذه أهم الوظائف الإيجابية للدين التي يمكن أن تساهم في بناء الهوية وتعزز في تقويتها.

إن الدين بالرغم من الأهمية التي يشكلها داخل المجتمع ببناء الهوية الثقافية وتعزيز الانتماء إلى الجماعات، إذ يعد مصدرا هاما لبناء الهوية الثقافية، فهو من جانب آخر يمكن أن يكون عاملا ديناميا لتشكل الصراع الإيديولوجي القومي والطائفي، وفي هذا الصدد يرى كارل ماركس" أن الدين أفيون الشعوب، لذلك ركز على سوء استعمال الدين من قبل المؤسسات والطبقات المهيمنة، وحسبه فالدين يشجع الضعفاء على تقبل أوضاعهم والاستكانة لها بدلا من العمل على تغييرها"(الغني، 2017)هذه المقاربة تتبنى طرحا مخالفا للرؤى والاتجاهات التي تنظر إلى الدين كرمز للوعي الجمعي ومصدر لبناء الهوية الثقافية، فهي تنظر إلى الدين نظرة أخرى معاكسة للتيار الأول، فهي تعتبره أفيون الشعوب مبررة تصورها في الاستكانة للوضع القائم دون أي تغيير.

ويرى ماكس فيبر أن الدين يبدأ مع الفرد، مع الشخصية الكارزمية المؤسسة للمجتمع الديني، وحسبه فإن سلوك الناس وتصرفاتهم تعود إلى دوافع مختلفة منها، التصرف وفق العادات، المجتمع، المنفعة العقلانية، التصرف وفقا للقيم الذاتية وتصرف تحت تأثير العواطف الجياشة"(الغني، 2017)وحسب فيبر فإن سلوكات الأفراد تتحدد بأسباب مختلفة منها ما يتعلق بالعادات والمجتمع، ومنها ما يعود إلى المنفعة، وأخرى للقيم والعواطف؛ لذلك ركز فيبر على تحليله للبعد الديني من خلال

الأخلاق في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية* وبذلك فإن هذا التصور لماكس فيبر يركز على أهمية البعد الديني وتأثير السلوك الديني على بقية النشاطات الخاصة بالفرد الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وهذه الرؤية تقر بوظيفة و دور الدين في الحياة الاجتماعية عكس الرؤية الأولى لدوركايم، حيث يرى أهمية الدين في جانبه العقائدي والرمزي وأهميته في تعزيز الهوية الثقافية وتنمية روح الانتماء، أما ماركس فينظر للدين برؤية مختلفة حيث يعتبره أفيون الشعوب كونه يجعل الضعفاء يتقبلون وضعياتهم.

إن السوسيولوجيا تتعامل مع الدين باعتباره عالما من المعاني والرموز، ينتج روابط اجتماعية وثقافية قد تفسر أو تستعمل بطرق مختلفة وفي تنظيمات مؤسساتية واجتماعية متعددة، تتمتع بجاذبية شعبية ظاهرة تنتج فعاليتها وتعيد إنتاجها عبر فاعلين يمدون حقل العلاقات المتصلة به بفاعلية قد تتجاوز المكان والزمان(الغني، 2017).

تسعى السوسيولوجيا إلى اعتبار الدين نسقا يدفع الأفراد إلى تعزيز روابطهم الاجتماعية، ويمدهم بالقيم الاجتماعية والثقافية في ممارستهم اليومية من خلال الرموز التي تربطهم في هويات ثقافية، وأهم الطقوس والمعتقدات والتفسيرات لسلوك المجتمعات، تركز السوسيولوجيا على تحليل و تفسير السلوك الديني للأفراد في المجتمع في ظل السياقات التاريخية والاجتماعية عكس بعض الدراسات في الدين التي تعالجه بعيدا عن هذه الخصوصيات السوسيوثقافية .

و الواقع أن الدين يمثل وظائف في المجتمع ويشكل نسقا من القيم والأخلاق التي تساهم في تعزيز وتقوية الروابط الاجتماعية، حيث يعدّ مصدرا في تقوية الانتماءات وترشيد السلوك والأفعال والممارسات في الحياة اليومية، لكنه من جانب آخر قد يؤدي إلى خلق الصراعات التي تنشأ من سوء توظيفه لدى بعض المتعصبين والمتطرفين والطوائف بسبب التنوع الذي ينجم من المعتقدات والإيديولوجيات الدينية؛ لذلك فهو يبقى مصدر تفكيك و بناء الهوية الثقافية والاجتماعية .

2 -3/الثقافة واللغة

تعدّ الثقافة مصدرا هاما في تشكيل وبناء الهويات الاجتماعية، بصفتها تمثل ذلك الكل من العادات والتقاليد والمعايير والقيم والخصوصيات الثقافية والاجتماعية التي تميز مجتمعا عن آخر، وهي تعبر عن التجارب وطرق الحياة للمجتمعات، كما" تعد من العناصر المكونة لهوية الشخص الاجتماعية، ذلك لكونها كيفية خاصة لرؤية الوجود والحياة وأسلوب في العيش والسلوك والإحساس والإدراك والتعبير والإبداع بتميز مجتمع بشري معين فيما يملكه من أصالة عريقة و متجذرة في التاريخ"(الداوي، 2013)

---

*كتاب الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية صدر عن فيبر عام 1905، ويعد من أهم الدراسات الدينية التي قدمها. وحسب فيبر فإن الأخلاق ساهمت في تطور الروح الرأسمالية، وهذه الأخلاق هي التي أنتجت قيما ومعايير شجعت على العمل الحر والادخار والتقشف، والبروتستانتية حسبه استطاعت أن تقدم الحوافز التي تدفع إلى الإنتاج والعمل وتحصيل الثروة وبناء الحياة الاقتصادية وبناء هوية الفرد المقاول. ينظر :تاريخية أشكال الهوية دوبار أزمة الهويات تفسير وتحول.

تشمل الثقافة أنماط العيش وطرائق السلوك وهي تصور وتمثل خاص للفرد حول الوجود، لهذا فهي تمثل عنصرا بانيا لهوية الشخص الاجتماعية كما تشكل الثقافة النموذج المعياري و القيمي والسلوكي الخاص بالمجتمعات البشرية، إذ يقول غوستاف فون غرونباوم" الثقافة منظومة من الأسئلة والأجوبة تتعلق بالكون والسلوك الإنساني بمعنى أنها نسق من المعلومات والإحالات والمعايير الشائعة في مجتمع بأكمله، والمؤثرة جزئيا على مناحي تفكيره وسلوكه إزاء العالم الخارجي، والمنقولة عبر ذاكرته الجماعية، وهي التي تشكل في نهاية المطاف مصدر أصالته وهويته الجماعية"(الداوي، 2013)

هذا التصور يعطي للثقافة معنى النسق المتكامل من العادات التقاليد والسلوك ونمط العيش واللباس والأكل - خصوصية مجتمع- منظومة القيم والعادات والتقاليد التي تؤثر على الأفكار و السلوكات وتعد عنصرا ومصدرا للهوية الاجتماعية، فإنتاج الثقافة هو انتقال العادات والتقاليد من جيل إلى جيل، وتتحول عبر الزمن إلى تراث وقيم، فالثقافة تعبر عن الأدوات والوسائل التي يستخدمها أفراد المجتمع .

أما ستفين فروش يعتبر أن الهوية إفراز من الثقافات، ولكنها لا تتكون منها بتلك البساطة، ويؤكد أن هوية الفرد في الحقيقة متعددة، وربما سائلة حيث إنها تتكون عبر التجربة وتترسخ برموز لغوية، وحسبه فإن الأفراد يطورون هوياتهم عندما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم وتلك الموجودة في المجتمع ككل(الداوي، 2013) وهذا يعني أن الهوية متعددة كونها تتكون عن طريق التجربة وترسخها الرموز اللغوية لهدف تطوير الهويات بواسطة الثقافة الموجودة في المجتمع.

تعد الثقافة من الديناميات البانية للهوية ومن العناصر المشكلة لها باعتبارها" تضم سلوكا محكوما بالقواعد ومشاركا يقوم على الرمز ويتم تعلمه، و كذلك معتقدات يتم نقلها عبر الحضارات، فالجنس البشري له القدرة على التثقيف بالمعنى العام، إلا أن البشر يعيشون في ثقافات معينة حيث يتم ترتيبهم على القدرة الإنسانية للتعلم الثقافي واستخدام اللغة والرموز(بايزايرجر، 2003)وكذلك نقل الموروث والمعتقدات التي تشكل ثقافة ذلك المجتمع وتتكون بالتجربة واللغة " التي تعيد إنتاج العالم، معناه أن الإنسان عندما يتكلم يعيد في خطابه إنتاج ما حدث وإنتاج تجربته الذاتية بما حدث"(حيمر، ب.س.ن)فاللغة تعيد إنتاج تجربة الفرد في أثناء الكلام أو الحديث عن تجاربه التي اكتسبها خلال حياته وطرق تفكيره وسلوكه والعادات والمعرفة التي يمتلكها باعتباره فاعلا في المجتمع.

لذلك فاللغة تعد الوسيلة للتواصل بين الأفراد والجماعات و ترسخ لديهم الرموز، حيث إن هذه الرموز تشكل الأساس في أي نمط ثقافي " فالقدرة على التمثل الرمزي لا يمكن أن يختزل في معطى فطري بيولوجي في الإنسان ما دامت نتاج لتفاعلات اجتماعية جرت خلال صيرورة طويلة تتطابق مع الصيرورة التاريخية لتشكل الإنسان وانبثاقه في هذا الكون. فتلك القدرة ليست مجرد استعداد فطري يتميز به الإنسان عن غيره من الحيوانات بل إنه تطبع عليه"(حيمر، ب.س.ن) هذا يحيل إلى أن التمثل الرمزي ليس وراثيا بيولوجيا في الإنسان، وإنما هو نتاج التفاعلات الاجتماعية التي حدثت متلازمة في

التاريخ، وجعلت الفرد يملك هذه القدرة نتيجة الخبرات والتجارب المكتسبة التي تشكل لديه مجموعة من التمثلات والتصورات لتصبح فيما بعد نسقا من الاستعدادات التي تمكنه من الممارسة والفعل والتكيف مع السياق والوضعيات الاجتماعية، وعليه فإن الثقافة "هي ما يطبع نمط حياة وسلوك الإنسان في المجتمع، وتشكل نسيجا لمعتقداته وتقاليده وتاريخه ولغته وفكره وآدابه وفنونه، وبهذه الصفة فهي مكون أساسي لهويته الاجتماعية"(الداوي، 2013).فالثقافة ذلك الكل من العادات والتقاليد واللغة والتاريخ، كما تعبر عن ممارسات وأساليب العيش للفرد في بيئته الاجتماعية التي تكرسها أنظمة التربية والتعليم والتكوين والتهذيب والمعارف، إضافة إلى التنشئة الاجتماعية التي تسمح له باكتساب العناصر الثقافية وتمكنه من الاندماج الثقافي والتكيف مع محيطه الاجتماعي.

فاللغة تعيد إنتاج التجارب الثقافية، ولكونها مستمرة عبر الزمن فهي " ضرورة لبناء هوية جماعية، وأنها تضمن التلاحم الاجتماعي لمجموعة ما، وتشكل لحمتها بقدر ما أنها تعلن الرابط الموسوم للإدماج الاجتماعي و للتثاقف اللغوي حيث تصهر رمزية الهوية. كما تجعل اللغة منا رعاة الماضي وتخلق التحاما معه، وتشحن هويتنا بالتاريخ"(محمد، 2017) فاللغة مصدر هام لبناء الهوية الجماعية؛ كونها تقوي من تلاحم المجموعات وتعزز من ترسيخ الرموز وتسمح للفرد بأن يندمج اجتماعيا، "حيث تسمح تخيلات اللغة للأفراد بالشعور بالانتماء إلى مجموعات لغوية إذ يعرفون بأنفسهم كأفراد ينتمون إلى مجموعة وحيدة بواسطة مرآة لغة مشتركة تعكس كل واحد على الآخر وعليها يتفق الجميع ويتعرفون إلى أنفسهم"(محمد، 2017) أي أن اللغة تجعل الأفراد يعرفون أنفسهم والآخرين في مجموعة انتمائهم نفسها عن طريق اللغة المشتركة فهي أداة التفكير والتواصل والتخاطب والفهم بين المجموعات الاجتماعية .

تقوم علاقة الهوية بالثقافة على طبيعة دور كل منهما في حياة المجتمعات، وتؤثر كل منهما على الأخرى وتعد الثقافة صانعة للهوية، كما تنتجها وتصبغها بخصائصها ومميزاتها، وتتطور الهوية بتطور الثقافة بمعنى تتأثر الهوية بالثقافة سلبا وإيجابا"(بن تمسك وآخرون، 2016)فالهوية الثقافية تعني الارتباط بين كل من الثقافة والهوية، وتعني هذه الأخيرة السمات والخصائص والمميزات الفكرية والاجتماعية والتاريخية التي يتميز بها مجتمع ما أو مجموعة بشرية، كما أن الهوية الثقافية تحيل إلى مجموعة انتماء أصلية يكون الأصل والجذور بحسب الصورة الاعتيادية وما يعرف الفرد بصفة أكيدة وأصيلة هذا التمثل شبه الوراثي للهوية الذي يؤدي دور الحامل لإيديولوجيات التجذير يؤول إلى تطبيع الانتماء الثقافي(كوش، 2002)إن الثقافة تمثل النظام الموروث والمعرفي وتعبر عن ما ينتجه المجتمع، وتنعكس على سلوكيات الفرد وتصرفاته، فهي تجمع القيم والعادات والتاريخ واللغة وبهذا فالثقافة تشكل الهوية؛ كونها تدعمها بمنظومة القيم والمعايير والسلوك التي تؤثر على الأفراد و" تسمى بالبنية المعرفية المعيارية وهي تشتغل كدليل ومرشد وموجه للفعل ومساراته، وتصبح بالتالي بمنزلة العناصر البانية للهوية الاجتماعية والثقافية التي تميز الثقافة الجمعية المشتركة والسائدة في جماعة معينة"(الغني، 2017). وبالتالي فإن هذه البنية تمثل نماذج ثقافية توجه سلوكات وأفعال الأفراد وتسمح أيضا هذه البنية بالتماسك والإدماج الذي يحقق الضبط الاجتماعي، ولهذا فإن الثقافة بانية للشخصية الأساسية وللهوية.

لذلك فالهوية الثقافية" هي مجموع العناصر الثقافية تسمح بالتعرف على الانتماء الثقافي لشخص ما، أو مجموعة بشرية معينة. كما يمكن أن تحيل عموما إلى الوعي الضمني، أو الصريح، بالإنتماء إلى جماعة بشرية تعيش في فضاء جغرافي محدد، ولها تراث ثقافي متميز يشمل تاريخا مشتركا، ولغة، وعادات، وتقاليد وتطلعات مستقبلية"(الداوي، 2013)

خاتمة ونتائج الدراسة

في الأخير يمكن القول:إن الهوية الاجتماعية لأي مجتمع تشكلها مجموعة من القيم والمعايير والقواعد والتصورات والتمثلات، حيث يتم ترسيخها وتعزيزها عن طريق اللغة التي تعيد إنتاج التجارب الذاتية و تسمح للأفراد بالتعرف على أنفسهم بالتواصل والتفاعل المشترك، فاللغة أداة تواصل وانتماء وتلاحم الجماعات، وعليه فالهوية الاجتماعية هي تلك الصور التي تتمثلها مجموعة معينة عن نفسها بالمقارنة مع مجموعة أخرى، إضافة إلى الشعور بالانتماء إلى هوية اجتماعية وثقافية معينة، وعليه فإن كلا من الثقافة واللغة والدين والتاريخ تعد من أهم العناصر و المصادر والديناميات التي تشكل الهوية الاجتماعية، وفي الآن ذاته، فإن هذه الهوية هي منتجة لخصوصية تاريخية وثقافية باعتبارها حاجة إنسانية ملحة.

وعليه فإن التمثلات التي تتعدد حول الهوية الاجتماعية تتنوع حسب المرجعيات والخلفيات الابستمولوجية لها، وتعد بمثابة أدوات يمكن للباحث في ميدان السوسيولوجيا الاستعانة بها، لفهم هوية الفرد أو الجماعة في المجتمعات الحديثة، كما أن المصادر التي تشكلها الهوية الاجتماعية لا يمكن فصلها عن بعضها ، لكنها تختلف حسب السياقات التي تتشكل فيها وكذلك الخصوصية الاجتماعية التي تميز مجتمعا عن آخر.

قائمة المراجع

1. اجبرون, م .(2005) .اشتقاق الهوية والمغرب الأقصى من منظور تاريخي.الرباط: الطبعة طوب بريس.
2. أرثر بايزايرجر. (2003). النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية (المجلد 1). (وفاء إبراهيم رمضان بسطاويسي، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
3. الجزار, ه .(2011) .أزمة الهوية والتعصب دراسة في سيكولوجية الشباب .(Vol. 1)الجيزة: دار هلا للنشر والتوزيع.
4. اليكس مكشليلي. (1993). الهوية (المجلد 1). دمشق: وطفة.
5. انطوني قيذنز. (ب.س.ن). قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع. (محمد محي الدين، المترجمون) القاهرة: المشروع القومي للترجمة.
6. ايان أسمن. (2003). الذاكرة الحضارية الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى (المجلد 1). (عبد الحليم عبد الغني، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
7. بن تمسك وآخرون. (2016). السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل (المجلد 1). الرباط: دار الأمان.
8. جليلة المليح الواكدي. (2010). مفهوم الهوية مساراته النظرية والتارخية الفلسفة في الأنثربولوجيا وفي علم الاجتماع. تونس: مركز النشر الجامعي.
9. جويل كاندو. (2009). الذاكرة والهوية. (وجيه أسعد، المترجمون) دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
10. عبد الرزاق الداوي. (2013). في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة (المجلد 1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
11. عبد السلام حيمر. (ب.س.ن). في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل (المجلد 1). بيروت: المكتبة العربية للأبحاث.
12. عماد عبد الغني. (2017). سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي و التفكك وإعادة البناء (المجلد 1). بيروت: مركز الوحدة العربية.
13. فليب ريتور. (2015). الدروس الأولى في علم الاجتماع (المجلد 1). (محمد جديدي، المترجمون) الرباط: دار الأمان.
14. كوش, د .(2002) .مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية(ق. مقداد.Trans ,)دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
15. محمد, ا .(2017) .تفاعلات الهويات الفرد والجماعة .(Vol. 1)سوريا: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع.
16. هارلمبس وهولبورن. (2015). سوسيولوجيا الثقافة والهوية (المجلد 1). (حاتم حميد محسن، المترجمون) دمشق: دار كيوان.
17. وانغ بين وآخرون. (2005). مفاهيم عالمية الهوية (المجلد 1). (عبد القادر قنيني، المترجمون) المغرب: المركز الثقافي العربي.